

النزاع العنصرى فى صدر الاسلام

بين العرب وغيرهم (١)

كان لا انتصار العنصرية العربية ، وقوة نفوذها ، وانتشار سلطانها فى الحرب والسياسة ، صدى فى داخل المملكة العربية الجديدة وفى نفسية العرب . فنبه ذلك الامويين الى اصفية مظاهر حكمهم من كل شائبة غير عربية . كان العرب الى عهد عبد الملك يتعاملون بالسكة الاجنبية : فارسية ورومية . فلم يبر من الكرامة للأمة العربية بعد فوزها العظيم أن لا يكون لها سكة خاصة تتأيد بها غلبة قوميتها ومظهر سلطانها . فعمد عبد الملك الى ضرب السكة العربية الخالصة ، وأصدر أمر القطيعي بحظر استعمال أية سكة اجنبية فى طول البلاد وعرضها ، ومعاقبة كل من يخالف ذلك من سكان البلاد . وهكذا أزال من البلاد ما قد يكون أثراً من آثار الأجنبي ونفوذه

كان الامويون فى دولتهم الجديدة قد قلدوا الروم فى استعمال الطراز الرسمى للدلايس ، وكان طرازهم الى عهد عبد الملك أيضاً رومى الصبغة واللغة ، فبدله بطراز عربى فى صبغته ولغته . وانشأ المعامل التى تصنع هذا الطراز العربى الخالص . كان العرب منذ أول عهدهم فى الاقطار المفتوحة استعملوا لغات الحكومات السابقة فى كتابة السجلات والدواوين ؛ لأنهم لم يكونوا قد مهرؤا فى ذلك الأمر الذى يحتاج الى الوقوف على أساليب خاصة وطرق معينة ، وتوهموا أن هذا لا يتقنه الا الروم والقبط والفرس وبلغاتهم . ولكن عبد الملك والوليد من بعده رأيا أن استمرار استعمال هذه اللغات فى الدواوين الرسمية عائق فى سبيل تعميم اللغة العربية بين طبقات الوطنيين ، ومانع من ترقية اللغة العربية ومرونتها على

أنواع الاستهلات عدا كونه لا يأتلف مع الكرامة القومية فى شىء . فنقلت الدواوين فى عهدهما من اللغات الوطنية الى اللغة العربية . وأنت تعلم أن رسمية اللغة ظاهرة من ظواهر كرامة الأمة واستقلالها كما أن السكة والطرار يدخلان فى جملة ذلك . فكان فى هذا العمل تثبيت تام لنفوذ العرب وتأيد قطي لنفوذ عنصريتهم وانتصارها فى نزاعها

وكذلك لو تتبعتم طريقة ادارة الأعمال على عهد الأمويين لرأيت أن جميع الأعمال الرئيسية كانت فى يد العرب . فلم تكن ترى قائداً أو والياً أو قاضياً غير عربى معروفة أرومته . ومعنى ذلك استبقاء صفة السلطة والرياسة فى العرب ، وعدم اعتبار العرب غيرهم اكفاء لهذا العمل العظيم . ويدل أيضاً على تمكن الروح القومية بصورة لا تستسيغ أن يكون ولاية الأمر والرياسة فى الدولة العربية من غير العرب فى حال

ومن هذا القبيل صرفهم الخلافة عن من لم يكن عربياً فى خولته ، أى عدم اعتبار من تكون أمه غير عربية كفوّاً للخلافة . فان مسلمة بن عبد الملك الذى ظهر من قدرته وحمته وبلائه الحسن فى الفتوحات واطفاء الثورات ماجله فى عداد أبطال العرب الكبار لم يتسّم عرش الخلافة - مع كونه ذا حق فيه وجدارة له - إلا لأن أمه غير عربية ، فلم يعهد له أبوه ولم يعهد له أحد من اخوانه ، مع أن سليمان عهد الى ابن عمه عمر ، وكان اخوه مسلمة محاصراً للقسطنطينية . وكان مسلمة كان يرى ذلك طبيعياً الى درجة أنه لم يتحدث نفسه به أيضاً

على أن الشعور بالهزة القومية وبقوة الروح العنصرية لم يكن مقصوداً على هذه الرسمية فى هذه المرحلة ، بل كان منتشرراً فى العرب على اختلاف طبقاتهم أيضاً . كانوا يرون أنفسهم أنهم اشرف أرومة وأكثر كفاءة وأبعد همة وأحق بكل عظمية من غير العرب ، وان لهم الحق فى أن ينفوقوا على غيرهم ويمتازوا

عن سوام ، لأنهم أصل الهداية ومنبع الرشيد ، ومحمد المكرم ، ومحمد الخلال الشريفة ، وكانوا يسمون غيرهم بالهراء ، وللموالى ولا يرونهم أكفأ لهم في أية حالة من الحالات وعمل من الاعمال

رأى معاوية أن الموالى قد كثروا كثرة عظيمة فخشى أن ينازعوا العرب الامر وحدته نفسه في تشييتهم وتقليل خطرهم ، وذاكر بعض ذوي الرأي من العرب ، فكان رأي سيرة بن جندب أن يقتل عددهم بالقتل والنفي والجلاء ولم يكن معاوية لم يعمل بهذا الرأي

أراد عبد الملك أن يصاهر أحد شريفي الرومات ، المعروفين بالنسب من شيوخ القبائل فخطب بعض بنات ذلك العربي لبعض أبنائه الخليفة فقال الشريف العربي لعبد الملك : جنبني هجناه بئيك . والمجيب في لغة العرب : من كانت أمه غير عربية وهي كلمة سبة وصغار

وصلت روح العزة العربية فيهم الى أن صار بعضهم لا يرى أن ياتم في صلاته بغير عربي ، وإذا اثتموا قائما يفعلون ذلك . تواضعا لله لا غير . وحتى روي عن بعضهم انه كان اذا مرت به جنازة عربي صاح واقوامه ، واذا حرت جنازة غير عربي قال « مال الله يأخذ ما يشاء ويترك ما يشاء » . وحتى أن عبد الله بن عمر دعا عليه أحد الموالى وقال له لا أكثر الله من أمثالك فينا فأجابه بل أكثر الله من أمثالك فينا . فلما سئل كيف يدعوه عليه وهو يدعوه له قال « يمه بين طرقنا ويخصفون نعالنا ويخطون ثيابنا » تصغيراً لشأن غير العربي ، أو أن العربي كان يرى نفسه انه وجه للرياسة والحكم ، فليس يليق به أن يتأول المهين والاعمال الأخرى .

على أن استقصاء أمثال هذه الحوادث أمر يخرج عن حدود بحثنا وهي كثيرة ممثلة بها كتب العرب من أدب وسير وتاريخ ، ولكن ما أوردناه منها للدلالة

على ما رغبنا في تقريره

ومع أن هذه الدرجة لفراط لا مسوغ له - بحيث جلبت على العرب الجحد والبغضاء ، وتجاوزوا فيها المقول والمنطق - فإنها تدلنا دالة واضحة على ما وصلت اليه العزة القومية والشعور بها عندهم

ولا ريب في أن ذلك نابع عن المظهر القوي الذي ظهر به نفوذ العرب ، وانتداب أمرهم وسلطانهم من الصين والهند بشرقا إلى البحر الاثلا تيكي غرباً : في هذه الاقطار الواسعة لفتحهم منتشرة ، وحكمهم نافذة ، وكلمتهم هي العليا . قد دحروا أمامهم كل مزاحم ، وقضوا على أعظم دول العالم ، وفردوا بالنفوذ والسلطان كانت جيوشهم الفاتحة هديدة ومنتشرة في مشارق الارض ومغاربها ، تحقق عليها ألوية النصر ، وترعها عين النجح والتأييد . فتحها جيوش مشرقة للشمال تكتسح بلاد الترك من أقاليم فرغانة والشاس والصند وتطأ أرض الصين ، وجيوش مشرقة للجنوب تدوخ بلاد البلخ والافغان والسند وتطرق باب الهند . ومع انها كانت تلتقي كيداً شديداً في هذه البلاد لم تكن رأتها في الشام وفي مصر ، فقد كانت تنتصر الانتصار تلو الانتصار ، فتتل العروش وتفتح المدن ، وتدين لها الملوك ، وتضع يدها على ما في هذه الاقطار الواسعة من ثروة وغنائم ، وتقبل الناس على اعتناق دينها وتعلم لغتها

هنا في المشرق ، بينما كانت جيوشهم في المغرب يخوض للمارك مع البربر ، ثم تتطلع الى ما وراء البحار فتعبر الى ايريا في أوروبا ، فتحطم عرش القوط والجلالة ، وتكتسح أكبر هذه الجزيرة ، وتؤسس نفوذها وتنتشر دينها ولغتها وحضارتها . وفي الوقت ذاته ترسل جيوشاً جرارة فتخترق آسيا الصغرى من أولها لا آخرها ، ويحاصر القسطنطينية حصاراً طويلاً وكأنها تحتل نفسها أن تلتقي جيوشها المشرقة بجيوشها للثربة لتطويق أوروبا وتدخلها في سلطانها ، كما

فعلت في آسيا وافريقية . وبعبارة اخرى كأنها أصبحت وارثة العالم لا معارض ولا مزاحم . لا تحارب الا وتغلب ولا تصدم الا وتفوز . لا يقف امام تيارها شئ . ولا يحول دون سبيلها حائل

ولم تكن حالتها كحالة الامم البربرية التي كانت تخرج من منابها فتكسح البلاد ، وتدمر معالم مدينتها ، بل أظهرت - رغم الفترة الطويلة التي قضتها في الجاهلية - من المرونة وقابلية الاستعمار والنجاح في أساليبه ما ترك لها ذات الاثر الذي تركته انتصاراتها الحربية أيضاً

لم يسبق أن عانت أمر البحر والملاحة ، ولسكنها لم تكدر ترى ضرورة ذلك في هبتها الجديدة حتى باشرته فنجحت فيه : فأنشأت الاساطيل ، وغزت الجزر والسواحل ، وغلبت سادة البحار ، وتفردت فيها بالنفوذ كما تفردت في نفوذ البر . كذلك لم تلبث أن سارت على أساليب الحياة المدنية ، ومرنت على النظام واتقان الاعمال الرسمية ، فدونت الدواوين ، وضربت النقود ، وأنشأت دور الصناعات ، واستغنت بالعرب والعربية عن كل صبغة أجنبية . ثم التفتت الى العمران فأنشأت المدن وعمرت القصور ، وأقامت المساجد ، ومهدت الطرق . وهكذا ظهرت في حياتها الجديدة مجلّة كنّها ابنة بمجدة المدينة

ولعل العرب الذين خرجوا من الجزيرة في هذه الموجة الاسلامية كانوا أعظم عدد خرج في الموجات الاولى ، فانتشروا في شرق الارض وغربها ، وكان منهم العدد الكافي لتأليف هذه الجيوش الجرارة : من محاربة ، ومرابطة ، وصائفة ، وشاتية ، وبرية ، وبحرية . ولايجاد كتل عربية كبرى في جميع الاقطار التي فتحتها ، فكانت سبباً في تعريب اكثرها

ولعل هذا الدور كان أغزر أدوار العرب إنجاباً للرجال : من خلفاء ، وقواد ، واءراء ، وولاة ، وحكام ، وعلماء . وكان اكثرهم في اعمالهم المثال الذي يجدر

بالتأسي ، والقدوة التي تخلق بالاتباع . فهدوا للأمة العربية ما مهدوه . من هذه
المظلة الخالدة والسلطان الواسع ، فحق للعرب ولاشك أن يروا أنفسهم مثل ما رأوها
وان يحلوا المركز الساني الذي أحلوا فيه

وها نحن نرى الانكليز الآن يرون أنفسهم في مستوى أعلى من مستوى
غيرهم . وكأنهم من جبلة غير جبلة البشر . وما ذلك الا لأنهم يرون أنفسهم
متفوقين عنصرياً على كثير من غيرهم بالقوة والنزوة وسمة السلطان . وأنت عليم
أنه يوجد في هذا العالم أمم راقية ودول عظيمة ، ومنها ما يزاحم نفوذ الانكليز
ويضاهيهم في قوتهم وزيوتهم ، فلا غرو اذا رأينا الشعور بالعزة القومية قد بلغ في
العرب هذا المبلغ البعيد ، ولم يكن حينئذ في الدنيا غيرهم عظيماً في سلطانه ، عظيماً
في مظهره ، مزاحماً لهم في نفوذ او قوة او سلطان

نابلس

محمد عزة دروزه

﴿ رسالة ايمان العرب - للنجيري ﴾

لما كتبت ترجمة أبي اسحاق النجيري في العدد الماضي من الزهراء لم أكن
رأيت أحداً ذكر رسالته في (ايمان العرب) غير الزبيدي في تاج العروس
(مادة نجيرم) . وقد علمت الآن من حضرة صاحب السعادة العلامة المحقق
أحمد تيمور باشا أن البغدادي ذكر هذه الرسالة في موضعين من خزنة الادب
(١ : ٢٣٤ - ٢٣٥ * و ٣ : ٢١٠)

﴿ أموات الأحياء ﴾

مقابر من ماتوا مواطن راحة فلا تترك إمرئ المالكين جزوا
وإن تبك ميتاً ضمه القبر فادخر لميت على قيد الحياة دموا
اسماعيل صبري باشا